أخلاقيـــات القتـــال

فـــــي

عصـــر الحروب الصليبيـــة

إعداد

خليل حميد الشمري

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين خاتم النبيين المجاهد الأمين محمد بن عبد الله وآله الطاهرين وصحابته المجاهدين :

أما بعد

فان الإسلام دين الحياة الكامل الذي لا نقص فيه ، ولا عوج فقد عالج الجوانب الحياتيـــه المختلفة ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في السلم والحرب في السعة والضـــيق ، والانتعـــاش والانكماش وطبق جنوده تعاليم هذا الدين وقوانينه في الحرب والسلم متأسين في ذلـــك بـــالنبي الكريم وصحابته المجاهدين مدفوعين بقوة الإيمان وقيم ومبـــادئ الإســـلام ، فضـــربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والوفاء والصبر والتضحية ، فلم تر الدنيا أدبا عسكريا مثل أدب وأخـــلاق أولئك الرجال الذين كانوا يقتلون بآداب الدين وتعاليمه قبل أن يقتلوا بأدب الرجال وأخلاقهم ٠

إنما دفعني إلى دراسة أخلاق الحروب في هذه المرحلة التي تعد من المراحـــل المهمـــة فـــي التأريخ الإسلامي، إن مصير الأمة كان متوقفا على مدى تمســـكها بمبـــادئ الإســـلام وقيمـــه الخالدة، ومما دفعني أيضا إلى دراسة هذه القيم والأخلاق إن جونب كثيرة من تاريخ الحـــروب الصليبية لا تزال بحاجة إلى البحث والتنقيب وفي التدوين التاريخي الإسلامي لا تزال أدبيـــات الحروب الصليبية تدور في الغالب الأعم حول أحداث المعارك ووقـــائع الحـــروب ولا يـــزال الاهتمام برصيد الظاهرة من منظور يهتم بالسببية التاريخية ونتائجها ، وسأتناول فـــي بحثـــي هذا :

٠ تعريف الأخلاق٠

٠ العهود والمواثيق ٠

٠ معاملة الأسرى ٠

٠الشجاعة والعفو والمروءة ٠

٠ أخلاق الصليبيين في الحروب٠

• الخاتمة •

تعريف الأخلاق :

الأخلاق لغة : السجية والطبع والمروءة والدين[١] .

الأخلاق اصطلاحا : هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الإرادية والاختيارية من حسنة وقبيحة، وهي قابلة بالطبع لتأثير التربية الحسنة والسيئة فيها ، فإذا ما ربيت هذه الهيئة على إثار الفضيلة والحق وحب المعروف والرغبة في الخير وروضة على حب الجميل وكراهية القبيح ، وأصبح ذلك طبعا لها تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة وبدون تكلف قيل فيه : خلق حسن[٢] ، إن حسن الخلق من صفات المؤمنين وهو من العبادات التي يتقرب العبد بها إلى ربه وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه على خلق عظيم ، فقال تعالى ((وإنك لعلى خلق عظيم))[٣] ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه بحسن الخلق ويقول لهم ((ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني منازلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويُألفون))[٤] وقال عليه الصلاة والسلام ((أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق))[٥] ، ومن هذه التوجيهات والتعليمات انطلقت أخلاق المسلمين وآدابهم في جميع معاملاتهم في أوقات السلم والحرب وعلى هذا سارت جيوش الفتح الإسلامي ، فلم يضطهدوا أو يجبروا أحدا على الدخول في الإسلام ، وكانوا يسمحون بالناس في الأمصار المفتوحة بالبقاء على ديانتهم مقابل دفعهم الجزية وبهذه الجزية يفرون لهم الحماية الكاملة فكانوا يحترمون شعائرهم وتقاليدهم ، ولم يكن الغرض من جهادهم غرضا ماديا أو حضا دنيوينا أو إغتصاب لحق أو عدوان على أحد ، وإنما هو إعلاء كلمة الله تعالى[٦] لذلك لم يحارب المسلمون إلا ليدفعوا العدوان عليهم ولم يستلوا سيوفهم إلا اليأس من مسالمة أعدائهم ، ولم يحاربوا إلا المحاربين وتركوا المسالمين وغير المحاربين آمنين في

---

(١) الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت ٤٧٦ هـ) ، القاموس المحيط ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٢ هـ ، ج ٣/ ٢٩٩ .

(٢) الغزالي أبو حامد محمد محمد محمد (ت ٥٠٥ هـ) إحياء علوم الدين ، ط ٢ ، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣١٦ هـ ، ٣/ ٤٦ . أبو بكر الجزائري ، منهاج المسلم ، القاهرة ١٤٠٦ هـ ١٤١ . محمود تركي اللهيبي ، أخلاقيات القتال في عصر النبوة ، مجلة نداء الحرية ، ١٤٠ .

(٣) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٤) الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن محمد ، المعجم الأوسط تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن ابراهيم الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، ٤/ ٣٥٧ .

(٥) الحاكم ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري ، (ت ٤٠٥ هـ) المستدرك ،ج ١، ص ٢١٢ .

(٦) محفوظ ، محمد جمال الدين ، مدخل إلى العقيدة الستراتيجية والعسكرية الاسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ م ، ص ٥١ .

ديارهم[١] وكانت التعاليم الإسلامية في الحروب تأكد على عدم الاعتداء على غير المحاربين من المدنيين ، فقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيوشه بقوله : ((لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ٠٠٠٠٠))[٢] كما كان يوصيهم صلى الله عليه وآله وسلم بعدم الاعتداء على رجال الدين أو استرقاقهم إن كانوا غير محاربين فكان يقول لهم : ((لا تقتلوا أصحاب الصوامع))[٣] ، ومن آداب المسلمين وأخلاقهم عدم إفشاء سر الجيش وخططه الحربية، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد الخروج إلى غزوة ما وارى بغيرها، ومن آدابهم الصمت عند خوض المعركة واستعمال الرموز والشعارات والإشارات بين أفراد الجيش ليعرف بعضهم بعضا واختيار الأماكن الصالحة للقتال وترتيب المقاتلين واختيار الزمن المناسب لشن الهجوم على العدو[٤] وبهذه الأخلاق كانت الجيوش الإسلامية تقاتل وبأخلاقهم فتحوا كثيرا من الأمصار قبل سيوفهم ، فلم يحدثنا التاريخ : إن المسلمين منذ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا أكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام أو إن أحدا أوذي لا لشيء غير إنه مسلم ورغم تعرض المسلمين للاضطهاد الديني في فترات كثيرة من التاريخ ، إلا أنهم مع ذلك لم يضطهدوا أحدا[٥] ٠

العهود والمواثيق :

المعاهدة لغة: من عهد ، والعهد كل ما عوهد الله تعالى عليه وكل ما بين العباد من مواثيق فهو عهد ، والعهد الوصية والوفاء والميثاق والحفاظ ورعاية الحرمة[٦] ٠

المعاهدة اصطلاحا: (مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره)[٧]، ويجوز عقد الهدنة مع المحاربين إذا كان في ذلك تحقيق مصلحة محققة للمسلمين ، فقد هادن

---

(١) ليلى حسن سعد الدين ، أديان مقارنة ، دار الفكر عمان ١٩٨٥ ، ١٢٥ ٠

(٢) مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري (ت ٢٦١ هـ)، صحيح مسلم،١٣٧٥ /٣ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي بيروت ، بلا، الشيباني ، ابو عبد الله محمد بن حسن ، (ت ١٨٩ هـ) ، شرح اليسر الكبير ، ٩٣ / ١ ٠

(٣) أحمد ، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) المسند : ٢/ ٤٥ ، مؤسسة قرطبة مصر د ٠ ت ٠ الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠ هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينيه ، ٣٩ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٠ م ٠

(٤) أبو بكر الجزائري ، منهاج المسلم ، ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ ، بيروت ٠

(٥) هاشم جميل ، مسائل من الفقه المقارن ، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ ٠

(٦) ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ، بيروت ١٩٥٦. ١٩٥٦.

(٧) الكاساني ، علاء الدين الكاساني (ت ٥٨٧ هـ) ، بدائع الصنائع ،٧/ ١٠٨ ٠ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) ، المغني ١٠/ ٥١٧ ٠

النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حروبه الكثير من المحاربين ، ويجوز عقد معاهدة عدم اعتداء وحسن جوار بين المسلمين وأعدائهم إذا كان في ذلك تحقيق مصلحة راجحة للمسلمين[١] ، وقد أمر الله تبارك وتعالى بالوفاء بالعهد فقال تعالى: (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا)[٢]، وقال تعالى: (إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين)[٣] ، وأكد النبي صلى صلى الله عليه وآله وسلم على الوفاء بالعهد فقال: (نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم) ، ومن الكتاب والسنة استمدت العهود والمواثيق مشروعيتها وكانت جزءا من الحروب في التاريخ الإسلامي ، وقد نهى القرآن الكريم عن الغدر والخيانة فقال تبارك وتعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم وكفيلا إن الله يعلم ما تعملون)[٤]، كما نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الغدر والخيانة فقال: (لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامته)[٥] ، ومن هذه القيم والمبادئ أخذ المسلمون الحفاظ على عهودهم بكل وفاء وصدق ولم يدنسوا عهودهم بغدر أو خيانة ، إلا أن يبدأهم العدو بغدرهم وخيانتهم كما وهو حاصل في الحروب الصليبية ، فقد كانت الصفة البارزة للصليبيين هي الغدر ونكث العهود والمواثيق ، فعندما استولى الصليبيون على معرة النعمان[٦]، سنة ٤٢٩ هجرية غدروا بأهلها بعد أن أعطوهم الأمان وارتكبوا واحدة من مذابحهم البشعة[٧] ، فقتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف وأخذوا من بقي حيا لبيعه[٨] وفي سنة ٥٥٩ هجرية عقدت هدنة بين المسلمين والإفرنج لمدة عام ، إلا أن الإفرنج نقضوا المعاهدة وهاجموا المسلمين الأمر الذي أثار حفيظة الملك العادل

---

(١) أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم ٣٣٣ ــ ٣٣٤ ٠

(٢) سورة الإسراء، الآية : ٣٤ ٠

(٣) سورة التوبة، الآية : ٤ ٠

(٤) سورة النحل، الآية : ٩١ ٠

(٥) مسلم، صحيح: ١٢/ ٧٨ ٠

(٦) معرة النعمان سيميت بهذا الاسم نسبة إلى الصحابي الجليل نعمان بن البشير الهروي ، أبو الحسن علي بن بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق سورد الديل وطومين ، الطبعة الثالثة ١٩٥٣ ٠ الحموي، ياقوت: (ت ٦٢٦ هـ) معجم البدان تحقيق فريد عبد العزيز جندي الطبعة الاولى بيروت ١٩٧١

(٧) ابن القلانسي، أبو يعل حمزة (ت ٥٥٥ هـ)، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ــ ١٣٧ ، تحقيق مدرروز مدرروز بيروت مطبعة الاباء اليوسعين ١٩٠٨ ٠ ابن الاثير علي بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ ، ج٨ ص ١٧٨ ــ ١٨٨ ٠ سعيد عاشور ، تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ، ص ١٨٩ ــ ١٩٧ .

(٨) الاصفهاني ، عماد الكاتب الاصفهاني ، حروب صلاح الدين ، ص ١٨ ٠

نور الدين[١] ، وفي سنة ٥٢٧ هجرية هاجم الصليبيون مركبين تجاريين على شاطئ أللاذقية وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين هادنهم فنكثوا[٢]، وكان جوسلين الثاني أمير الرها الصليبي الصليبي كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر[٣] وعندما رأى أهل مدينة جبيل عجزهم عن قتال الإفرنج أخذوا. منهم أمانا وسلموا لهم البلد فلم تفي لهم الإفرنج بالأمان ، وأخذوا أموالهم واستنقذوهم بالعقوبات وأنواع العذاب[٤]، وفي سنه ٥٨٢ هجرية هاجم ارناط صاحب الكرك قافلة للمسلمين مليئة بالرجال والأموال بعد أن نكث بعهده ثالثا[٥] ، وعندما أعطى صلاح الدين الدين باليان دي ابلين أمانا وهو أحد كبار قادة الصليبيين الذين فروا من معركة حطين للوصول إلى بيت المقدس لجلب زوجته وأولاده، شرط أن لا يقيم فيها سوى ليلة واحدة، ولا يرفع سلاحا بوجه المسلمين[٦] إلا أنه قابل العفو والإحسان بالغدر والخيانة ، فلقد نقض وعده وخان عهده وانضم إلى معسكر الصليبيين ، ومع ذلك قابل صلاح الدين تلك الخيانة بكل شهامة فسمح لزوجته وأولاده بالمرور إلى طرابلس وأرسل حامية من خمسين فارسا تحمل حاجاتهم[٧] ، كما أن ملك بيت المقدس جاي لوزجنان خان وعده ونكث عهده بعد أن أطلق سراحه صلاح الدين واشترط عليه أن لا يرفع سلاحا بوجه المسلمين ، وبمجرد دخوله إلى مدينة سور ، بدأ يلم شعث الصليبين للثبات أمام هجمات صلاح الدين واسترجاع البلاد التي أخذت[٨]. إن الحيل وأساليب الدهاء لم تمر على الأهالي ولم يثقوا بنواياهم ، فهم يعرفون حقيقة الإفرنج وزيف وعودهم[٩] ، وعندما استولى الصليبيون على دمياط سنة ٦١٦ هجرية

---

(١) أبو شامة ، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) ، ج ١ ص ١٠٣ .ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ) ، زبدة الطلب في تاريخ حلب ج١٦ ص ١٣٢ــ ١٣٤ ، تحقيق سامي الدهان دمشق ١٩٦٨ . ابن الاثير ، الكامل ج٩ ص ٢٢٧ .

(٢) مها داود ، مدن الساحل الشمالي ما بين انطاكيا وطرابلس خلال القران السادس الهجري ، رسالة ماجستير ص ١٧٥ .

(٣) الصلابي ،علي بن محمد بن محمد ، الدولة الزنكية ، ص ٤٩٤ .

(٤) أمين ، حسين أحمد ، الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها ص ٤٢ .

(٥) ابن العبري غريفورس ابو الفرج بن اهرون الطيب (ت ٦٨٥ هـ) ، تاريخ مختصر المدن ج٥ ص ٤٢، بيروت ١٩٨٠ . سبط ابن الجوزي ، أبو المظفر يوسف بن قزا وعلي (ت ٦٥٤ هـ) مرأة الزمان في تاريخ الاعيان ص ٣٨٩ ، الهند حيدر آباد ١٣٧٠ هـ

(٦) الغامدي، عبد الله بن سعيد بن محمد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٢٠٦ .

(٧) استفين رينسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ .

(٨) ابن شداد، النوادر السلطانية ، ص ٩٨ . عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢/ ٨٥٣ .

(٩) ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ دار صادر صادر بيروت ١٩٥٩ ، مها داود ، ١٨٩ .

طلب أهلها الأمان منهم وأن يخرجوا من المدينة بأهليهم وأموالهم ، فحلف لهم الإفرنج على ذلك وأعطوهم عهودهم ومواثيقهم فلما فتحوا لهم الأبواب دخلوا وغدروا بأهلها ووضعوا السيف فيه[١]، وباتوا في الجامع يفجرون بالنساء ويغتصبون البنات وأخذوا المنبر والمصحف[٢] .

معاملة الأسرى

الأسرى هم المقاتلون أو من في حكمهم في جيش العدو ، الذين يقعون في قبضة الجيش الإسلامي وهم أحياء[٣] وأكد الإسلام على حسن معاملة الأسرى والحفاظ على أرواحهم والرأفة بهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{٨}**﴾[٤]، كما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بحسن معاملة الأسرى وعدم التعدي عليهم بأي نوع من أنواع الأذى النفسي والجسدي فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ((استوصوا بالأسرى خيرا))[٥] ، أما حكم الأسير في الإسلام فمستنبط من الشريعة الإسلامية، وهو الفداء بالمال أو إستبدالهم بالأسرى أو بالمن عليهم من غير شيء أو يقتل حسب ما تقتضيه المصلحة العامة، وعلى هذا الأساس كانت تعاملات المسلمين مع الأسرى في مختلف المراحل وبضمنها مرحلة الجهاد ضد الصليبيين ، فلم يضطهدوا أسرهم بل أكرموهم وأحسنوا إليهم وفي بعض الأحيان منوا عليهم من غير مقابل ، على الرغم من أن الصليبيين اضطهدوا أسرى المسلمين وآذوهم، وغدروا بهم في مناسبات عديدة فقد غدر ملك الإنكتار بأسرى المسلمين في عكا وقد كان صالحهم واستلم البلد منهم ، على أن يكونوا آمنين ثم قتل منهم ثلاثة آلاف رجل وهم مقيدون بالسلاسل والحبال ، فقتلوا صبرا وضربا وطعنا بالسيف[٦] ، أما المسلمون فقد تعاملوا على عكس ذلك فعندما أصبح آلاف الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية ، أسرى في يد صلاح الدين نقدم إليه أخوه الملك العادل يطلب منه أن يهب له ألفا من أولئك الصليبيين الفقراء ، يطلق سراحهم لوجه الله فأجابه صلاح الدين

---

(١) أرنست باركر الحروب الصليبية ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤) البداية والنهاية ج١٣ ص ٨٣ــ٨٤ .

(٣) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ١٦٧ ، ابن سيد الناس ، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله ، (ت ٧٣٤ هـ) عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ١٥/ ٢٨٧ ، مؤسسة عز الدين ، بيروت ، ١٩٨٦ .

(٤) سورة الانسان ، الآية : ٨ .

(٥) ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشا بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ) ، السيرة النيوية ج٢ ص ص ٦٩٩ . ابن الأثير علي بن محمد بن عبد الكريم ، الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ص ١٣١ .

(٦) ابن شداد ، القاضي بهاء الدين ، سيرة صلاح الدين ، ١٣٤ .

لذلك[١]، ثم إن صلاح الدين أطلق سراح كل من لم يستطع دفع الدية لكبر سنة ، ووصل تسامح المسلمين مع الصليبيين أن ألبسوهم زي الجند المسلمين وأخرجوهم من بيت المقدس[٢]، ولم يستثن من هذا العفو والتسامح إلا فرقتي الداوية والإستبارية[٣] ، فقد عرض عليهم الإسلام فمن أسلم اسبقاه ومن أبى أمر بقتله[٤] وقد خصهم بالقتل من بين الأسرى لأنهم لا يقلعان عن المعاداة ولا يخدمان في الأسر وهم أخبث أهل الكفر[٥] ، وكان صلاح الدين يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا ، أدخل عليه يوما أسيرا إفرنجيا أصابه الكرب وظهر عليه أمرات الخوف والجزع فرق له ومن عليه وأطلقه[٦]، وعندما وقع في يد المسلمين مع الأسرى طفل رضيع وباتت أمه مستغيثة بالويل والثبور طوال الليل حتى وصلت معسكر المسلمين مستغيثة بهم فأوصلوها إلى السلطان فبكت بكاء شديد ومرغت وجهها بالتراب فسأل عن قصتها فأخبروه أن لها طفل رضيع قد سبي ، فرق لها ودمعت عيناه فأمر بإحضار الرضيع وإعادته إلى أمه ، ثم أمر بحملها على فرس وألحقت بمعسكر الصليبيين مع طفلها[٧] ، وعندما طلبت منه زوجة البرنس صاحنة أنطاكيا أن يمن على أختها التي أسرت هي وزوجها وابنيهما ومعهما جماعة من أصحابهم أطلق سراحهم وانعم عليهم بمال وأرسلهم إلى أنطاكيا بناء على طلبهم[٨] ، وعندما سقط ملك بيت المقدس ومع خمسون فارسا في الأسر، أحسن إليهم صلاح الدين وأمر

---

(١) الغامدي ، عبد اله بن سعيد بن محمد ، صلاح الدين والصليبيين ، ص٢١٧ ٠

(٢) الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٥٩٧ هـ) الفتح القسي بالفتح القدسي ص ١٢٨ ٠

(٣) الداوية والاستبارية عبارة عن تنظيمات دينة وعسكرية ولدت في العصور الوسطى خلال الحروب الصليبية ، الداوية مهمتها حماية الصليبيين القادمين من أوربا إلى بيت المقدس ومحاربة المسلمين ، وعرفت هذه الطائفة بفرسان المعبد أو الهيكل ثم انقلبت إلى فرسان أشداء يرتدون أردية بيضاء عليها صلبان حمراء ، والاستبارية جماعة هدفها تأسيس الفنادق والخانات لراحة المسافرين والحجاج إلى بيت المقدس ثم انقلبت فيما بعد إلى فرسان أشداء يتعاطون مهنة القتال ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٠ ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، أبو شامة ، ابو القاسم عبد الحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) عيون الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ص٣٤ ، تحقيق أحمد البيسوني ، دمشق ١٩٩١ ٠

(٤) سبط ابن الجوزي مرأة الزمان ، ج٨ ، ص ٣٩٤ ٠

(٥) أبو شامة ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٩ ٠

(٦) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٢٠ ــ ٢١ ٠

(٧) ابن شداد سيرة صلاح الد ين ، ص ١٩ ٠ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشا م ص ص ١٤٢ ــ ١٤٦ ، الاسكندرية ١٩٨٤ ٠

(٨) الاصفهاني الفتح القسي بالفتح القدسي ، ج٢ ص ٢٥ ٠ ابن واصل جمال الدين أبو عبد الله بن سالم بن نصر الله (ت ٦٩٧ هـ) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ص ٢٦٧ ٠ أبو شامة ، عيون الروضتين في أخبار الدولتين ج ٤ ص ٣٥ ٠

لهم بماء مثلج بعد أن اشتد بهم العطش[١]، وقد بلغ من كرم صلاح الدين وتسامحه وعطفه على زوجات وبنات الفرسان الصليبيين الذين قتلوا وأسروا فقد تجمعن أمامه يطلبن الرحمة فعطف عليهن وأطلق سراح من كان على قيد الحياة ، وأما الذين قتلوا فصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن[٢] ، وعندما وقع ملك الإفرنج لويس التاسع هو وإخوانه في في الأسر وقد جاء غازيا لأرض الإسلام قام السلطان توران شاه بإكرامه وأقام عنده من يقوم بخدمته ورتب إليه كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب[٣].

العفو والمروءة والشجاعة

إن المسلمين أخلاق وصفات قل لها نظير في التاريخ ، ومن صفاتهم الشجاعة والمروءة والعفو ، وعلى الرغم من أن الفترة التي غزى فيها الصليبيون أرض الإسلام كانت فترة ضعف وتمزق بالنسبة للمسلمين إلا أنه قد ظهر قادة عظام استطاعوا أن يلموا شعث الأمة ويوحدوا صفوفها أمثال نور الدين محمود الذي ورث الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل ، وقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه (٥٢١ ــ ٥٤١) هجرية ومن بعد توليه الحكم وقد أمضى عماد الدين زنكي معظم حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة[٤]، ومن ثم صلاح الدين فان تزعمهم للجهاد ضد الصليبيين مكن المسلمين مقاومة الغزو الصليبي والوقوف بوجهه وضربوا أروع الأمثال في الشجاعة والعفو والمروءة بالرغم مما أصابهم من اضطهاد صليبي وإرهاب دموي ، أجابوه بكل مروءة وعفو ، ومن أمثلة ذلك إن المسلمين أرادوا أن يستغلوا موت الملك الصليبي بلدوين الثالث وانشغال الصليبيين بموته مستغلين التغلغل والضعف وحزن الصليبيين على ملكهم ليقوموا بهجوم عليهم إلا أن نور الدين لم يشاطرهم الرأي وقال لهم : (إن مهاجمتنا للصليبيين وهم على هذه الحالة عمل لا يليق بي ولا بكم ، بل يلحق بنا وصمة عار لن تمحوها الأيام ولو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخنا بجراحه ، إن أعدائنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم ، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع عن أنفسهم سنهاجمهم ونخرجهم من أرضنا ، ثم أرسل إليهم وفد من

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرأة الزمان في تاريخ الاعيان٠ مخائيل زابروف ، الصليبيون في الشرق ص ٦٥، دار التقدم موسكو ١٩٨٦

(٢) الغامدي صلاح الدين والصليبيون ، ص ١١٨ ٠

(٣) ابن أبيك ، أبو بكر عبد اله بن أبيك الداوداري ، (ت ٧٣٢ هـ) كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧ ص ٣٨٢ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١ هـ ٠

(٤) الصلابي ، على بن محمد بن محمد ، الدولة الزنكية ، ص ١٩٤ ٠

خيرة فرسانه لتعزيتهم وأرسل إلى أرملة الملك عقدا ثمينا كان لها وقع في أيدي المسلمين مع الغنائم ووعدها الرسول بأن نور الدين لن يرفع بوجه الصليبيين سلاحا ما دامت مملكة القدس بدون قائد[١] ، وأما صلاح الدين فقد كان من الشجاعة ما أن يوما أقيم في قلت الكرك احتفالا عظيم بمناسبة زواج وريث مقاطعة شرق الأردن بالأخت الصغرى للملك ، وفي منتصف الاحتفال تقدم صلاح الدين بجيشه وحاصر القلعة ولم يستطع الصليبيون صد الهجوم إلا باعجوبة، فأرسلت أم العريس إلى صلاح الدين طبقا من أطعمه وحلويات حفل الزواج فسأل صلاح الدين عن البرج الذي يقيم فيه العرسان وأمر آلات ألحصار ألا تمسه بأذى[٢]، كما إن نور الدين محمود أنشأ دارا للعدل يجلس فيه مرتين في ألأسبوع او أكثر ، ولم يميز بين أبناء رعيته على أي دين كانوا فكان ينصف المظلوم ولوا كان يهوديا من الظالم ولو كان ولده أو أكبر أمير عنده ، ولم يمس النصارى بسوء ولم يهدم في حياته كنيسه ولا آذى قسا ولا راهبا على عكس الصليبين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها جميعا من المسلمين[٣]، وكان صلاح الدين متسامحا في جهاده مع الصليبين فقد إتبع سياسة الأمان مقابل تسليم المدن والحصون ، وقد اختار هذه السياسة عملا بالشريعة ألإسلامية ألسمحاء[٤]، فعندما عرض عليه بعض المسلمين هدم كنيسة القيامة وإزالة آثارها أعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها[٥] إن هذه الأخلاق دفعت الكاتب الأنكليزي لين بول على إبداء اعجابه بصلاح الدين فقال : (إنها كانت فرصه للملك المسلم أن يعلم المسلمين معنى التسامح)[٦] ولم يظهر صلاح الدين وحلفائه إتجاه إتجاه المسيحين شيء من العداوه[٧]، لدرجه ان المذاهب المسيحية الشرقية رحبت بعودة الحكم الحكم الإسلامي لما اشتهر به المسلمون من تسامح ديني[٨] ، وعند ما جاء لويس التاسع ملك فرنسا قاصدا احتلال بيت النقدس وتعرض الى هزيمة كبيرة وقع على غثرها في الاسر ثم اطلق سراحه عرض عليه بعدها الناصر يوسف سلطان دمشق زيارة بيت المقدس تحت حمايته[٩] ، لقد تعلم الصليبيون المقيمون في الشرق التسامح من المسلمين، لكن الصلبيين من

---

(١) قدري قلعجي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١١٣ ، طبعة بيروت ١٩٩٧ ٠ حبيب جاماتي ، الجنة في ظلال السيف ، ص ٧٥ ــ ٧٧ ٠ الصلابي ، الدولة الزنكية ، ص ١٥٢ ٠

(٢) قاسم ، عبده قاسم، الخلفيه الايديولوجيه للحروب الصليبيه ، ٢٢٧ ٠

(٣) الصلابي، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ٠

(٤) إحسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص١٩٩ ٠

(٥) إبن شداد ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٣١ ٠

(٦) الغا مدي، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٢١٦ ٠

(٧) إرنست باركر ، الحروب الصليبيه ، ص ١٨٤ ٠

(٨) إرنست باركر ، المصدر نفسه ، ص ١٨٤ ٠

(٩) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٣٣٤ ، مؤسسة الاسكندرية ١٩٨٤ ٠

الغرب لم يتعلموا ذلك مطلقا، وكانت انتصاراتهم ترافقها المذابح والنهب منذ احتلالهم بيت المقدس ١٠٩٩م الى نهبوا الاسكندرية عام ١٣٦٥ م، وكان اخلاق صلاح الدين عكس ذلك تماما[١]، لقد شهد الاوربيون بكرم وأخلاق المسلمين فذكر أحدهم ان المسلمين عند استردادهم بيت المقدس اتصفوا بالاستقامة الانسانية، فبينما كان الصليبيون منذ ثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم من المسلمين لم تتعرض عند استرداد المسلمين لبيت المقدس دارا من الدور لأي أذى ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، وصار الشرطة يطوفون في الشوارع يمنعون الاعتداء على الصليبيون[٢] ، إن هذه الآداب من الشجاعة والمروءة والعفو لم تكن نابعة من فراغ ولكنها مستلهمة من خلق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى كما قال تبارك وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[٣]، فقد كان كان استلهموا ذلك من أخلاقه حين تعامل مع أهل مكة الذين أخرجوه وقاتلوه ثم مكنه الله تعالى منهم فعفى عنهم بعد أن قال لهم : ((ما ترون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته { لا تثريب عليكم اليوم }[٤] اذهبوا فأنتم فأنتم الطلقاء))[٥]، وهنا يقف الحليم حيران إذا كان هذا خلقهم مع أعدائهم الذين سفكوا دمائهم واغتصبوا أموالهم وديارهم ، فما بالك بأخلاقهم مع أبناء جلدتهم وأمتهم ؟ لقد صاغوا للعالم أروع المبادئ والقيم في العفو والحرية، كان الأجدر بأمم الغرب أن تستلهم أفكارها وقيمها من هذه الأخلاق حين تتكلم عن الحرية والديمقراطية ٠

خلق الصليبيين في الحروب :

لقد كانت الدعوة إلى الحروب الصليبية من وجهة نظر البابوية هي دعوة لمواجهة كل ما هو باطل ومنكر ، وهذا الباطل من وجهة نظرهم هو وجود بيت المقدس في أيدي

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية ، ص ٢٤٢ ٠

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٢٥ ٠ الغامدي ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٢١٩ ٠

(٣) سورة الاحزاب، الآية : ٢١ ٠

(٤) سورة يوسف، الآية : ٩٢ ٠

(٥) الواقدي، محمد بن عمر، (ت ٢٠٧ هـ) ، كتاب المغازي ، ج ٢ ، ص ٨٣٥ ، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت عالم الكتب، ١٩٦٤ م، الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في السيره النبويه ، ص ٤٥٣ ، دار النفائس ، الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م ، المبارك فوري صفي الرحمن ، الرحيق المختوم ، ص ٣٨٢ـ ٣٨٣ ، دار المعرفه بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ م ٠

المسلمين[١] ، ومن هنا انطلقت فكرة الصليبيين الذين هم أبناء الغرب اللاتيني الذي تحمسوا لحمل أشارة الصليب بعد خطبة أربان الثاني في اكليرمن ، فعاثوا فسادا في طريقهم صوب القدس ونهبوا القرى والمدن في المجر والبلقان ، وأشاعوا عن أنفسهم قصص الرعب وذبح البشر وأكلهم بعد شيهم بالنار ، وارتكبوا أبشع المذابح بعد اقتحام بيت المقدس[٢] ، لقد كان كل فرد في أوربا الغربية طيلة ثلاثة قرون يشعر أن هناك حرب ينبغي شنها ، وأن الواجب الخلقي يقضي على كل فرد العمل بكل فيما بوسعه لمساعدتها[٣] ، لقد كان هؤلاء الصليبيون خليطا غريبا تحركه مجموعة متناقضة من الأهداف والدوافع[٤] أهمها الدوافع الدينية ، حيث كانت شعوب أوربا الغربية عميقة التدين[٥]، وفهموا الدين فهما عاطفيا من منظور التعصب المقيت وظنوا إن تدينهم يعني التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى[٦] ، حتى إن الفارس الذي يشارك في هذه الحروب ينال الخلاص التام والتطهير من الذنوب فيمعن طوال اليوم في قتل المسلمين وتذبيحهم حتى تخوض قدماه في الدماء ، فإذا جاء الليل ركع أمام مذبح كنيسة القيامة يهلل من فرط فرحه[٧] ، ولم يفرق الصليبيون في حروبهم بين المحاربين وغير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ ، وكانوا يقتلون وينهبوا من يصادفونه منهم ويخبطون في ذلك خبطا عشوائيا[٨] ، لقد كانوا مرعوبين قليقين متهيجي الأعصاب بشكل يدفعهم إلى التطرف[٩]، واغترافهم المذابح الجماعية[١٠] ، ولم تكن لدور العبادة والمساجد لديهم حرمة ، فقتل الإفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد على السبعين ألف منهم جماعة من الأئمة المسلمين وعلمائهم[١١] لقد كانوا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى فضلا عما قاموا به من سلب

---

(١) الفقي ، عصام الدين عبد الرؤف ، معالم تاريخ حضارة الاسلام ، ص ١٦ ٠

(٢) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايديولوجية للحروب الصلبية ، ص ٨٥ ، ط ٢ ، ١٩٨٨ ٠

(٣) استيفن رنسمان ، الحروب الصليبية ، ص ١٨٣ ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ٠

(٤) قاسم عبده ، المصدر السابق ، ص٨٥ ٠

(٥) ستيفن رنسمان ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ ٠

(٦) قاسم عبده قاسم ، المصدر نفسه ، ص ١٤٥ ٠

(٧) أرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٢ ، ترجمة الدكتور الباز العريني ، دار النهضة ، بيروت ٠
٠

(٨) أرنست باركر ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ ٠

(٩) قاسم عبده ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ٠

(١٠) مها داود ، مدن الساحل الشمالي ما بين أنطاكيا وطرابلس خلال قرن السادس الهجري ، رسالة ماجستير ، ص ١٨٨ ٠

(١١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٥ ٠

ونهب وسبي[١]، كما أنهم بنوا على وجه المحراب جدار تركوهوا مخزن للغلة، وقيل : اتخذوه اتخذوه مستراحا قاصدين بذلك طعن الإسلام والمسلمين[٢] ، كما أنهم بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة ونصبوا عليها مذبحا وعينوا بها مواضع للرهبان ، ووضعوا على رأس قبة الصخرة صليبا كبيرا[٣] ، وعند ما دخل الإفرنج دمياط جعلوا جامعها كنيسة كاثوليكية ، سموها كنيسة مريم العذراء[٤] ، إن هذه الحروب لم يكن البابا الوحيد المحرك لها ، بل معه ملوك أوربا المتدينين بهذه الديانة ، أمثال لويس التاسع فقد كان قلبه ينبض بحرارة تلك المبادئ الدينية المتزمة التي لا تفتر[٥] ، وكان حماسه للقضية الصليبية وإيمانه بها كفيلين بحشد الآلاف من الغربيين من سائر الأقطار الأوربية[٦] ، لقد ارتكب الإفرنج مجازر بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها ، فشكلوا فرقا عسكرية خاصة من خيرة فرسانهم لتقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية ، وتقوم بأعمال السلب والتخريب وتشييع الخوف والرعب في قلوب السكان ، فقد كانوا لا يتورعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ حتى تعرضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب[٧] .

الخاتمة

لم تكن المواجهة ألصليبية ألإسلامية مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداما بين حضارتين وعند ألآثار التي خلفتها تجلت في عده مستويات، سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية ،وقد امتلأت نفوس المسلمين بالغضب ومشاعر ألإحباط والمرارة ،التي زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبين عند كل هجوم جديد[٨]،لقد كانت الهجمة ألصليبية إذلالا للأمة ألإسلامية وكما قال ألأمام علي بن أبي طالب : ((ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا))[٩] لقد كان للحروب ألصليبية الطويلة آثارا سلبية تفوق آثار الحروب الأعتيادية ، فقد انتشر الفساد وأماكن الزنا والسفاح وأصبحت هذه الأماكن شبه رسميه إلى

---

(١) حسن حبشي ، أعمال الافرنج ، ص ١١٨ ــ ١٢٠ .

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ج١١ ص ٥٥١ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩ . ابن أبيك الداوري ، الدر المطلوب ، ص ٨٩ ــ ٩٠ .

(٤) أرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٦٢ .

(٥) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٦٤ .

(٦) جوزيف نسيم يوسف ، المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٧) نور الدين محمود ، في نهضة الأمة ، ص ٢٢٧ ، نقلا عن الدولة الزنكية .

(٨) ابن ألأثير ، الكامل في التاريخ ،ج ٩ ، ص ١٣ .

(٩) صفوت ، احمد زكي ، جمهرة خطب العرب ، ج ١ ، ص ٤٢٧ ، المكتبه العلميه بيروت .

درجة أن أصبح هناك أحياء خاصة بالبغايا في المدن[١] ،وكانت سببا رئيسيا في تعطل قوى ألإبداع والنمو في الحضارة العربية ألإسلامية[٢]، وانتشرت البدع والتصوف في المجتمع بشكل كبير إلى درجة أن سلاطين المماليك إستغلوا نفوذ الصوفية في تدعيم سلطانهم عند عامة الناس[٣]، لقد عانت المجتمعات ألإسلاميه كثيرا من مضاهر التدهور ألأجتماعي على صعيد النضام القيمي والأخلاقي وانتشر الشذوذ الجنسي بشكل واسع وهو أخطر ألأمراض الاجتماعيه على ألإسلام[٤]، لقد عانت ألأمه ألإسلاميه من بلاء الصليبين ألشيء الكثير وكان أكبر بلاء تعرضت إليه هذه ألأمه هو ألرهبه التي أحدثها الفرسان الصليبين ذوي العدد الثقيله في نفوس المقاتلين ، فكانت بعض الجيوش ألإسلاميه تهرب من اللقاء قبل أن يبدأ ألألتحام رغم أن عدد الفرسان الصليبين يقل كثيرا عن عددهم ٠ إن الغزوا الصليبي لم يستهدف ألإسلام كفرد أو عقيده وإنما ايضا كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه[٥] ، وعندما رحل ألإفرنج عن سوريا لم يتركوا ورائهم سوا خرائب قلاعهم لتكون حتى اليوم شاهدا على ما أشعلوه من حروب صليبيه[٦] ، ورغم هذا كله وما أصاب ألأمه ألإسلاميه من سبات حضاري وتمزق فكري واجتماعي أدى بها أن تعود إلى آخر الركب ، إلا أن الحروب ألصليبيه كانت في نفس الوقت كالضربه التي أفاقت النائم من سباته فظهر على آثرها رجال حملوا راية الجهاد وقاوموا المحتل ، وسطر التاريخ بحروف من ذهب ،إن قله من الرجال المصممون على النصر والشهادة يستطيعون أن يوحققوا المعجزات وأن رجلا واحدا مقداما يستطيع أن يقلب ميزان الحروب بجرأته وحماسه واندفاعه وحسن تدبيره فالحروب آلتها قلوب الرجال وسواعدهم وهممهم، كانت كذلك وستبقى كذلك مهما تطورت الأسلحه ومهما تطورت وسائل القتال وآلآته ٠

---

(١) ابن حجر، أنباء الخبر بأنباء العمر، ج ١ ص ١٢٧، تحقيق حسن حبشي القاهره ١٩٩٩ ٠

(٢) قاسم عبده قاسم، ماهيه الحروب الصليبية، ص ١٠ ٠

(٣) محمد زغلول سلام الأدب في العصر المملوكي، ج ١ ص٢٠٠ ، دار المعارف ١٩٧١ ٠

(٤) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٠ ٠

(٥) الصلابي ، الدولة الزنكية، ص ٣٦٢ ٠

(٦) إرنست باركر ، الحروب الصليبية، ١٣٢ ٠